

أصالة النظرية الخليلية الحديثة عند عبد الرحمن الحاج صالح.
 The originality of the modern khalilien théorie,
 according to Abd al-Rahman al-Hajj Salih.

د. بودية فتيحة

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم الجزائر.

boudiafatiha7@gmail.com.

تاريخ الإرسال: 2020/10/30 - تاريخ القبول: 2021/03/07 - تاريخ النشر: 2021/03/29

الملخص:

عرف "عبد الرحمن الحاج صالح" (1927-2017) اللساني الجزائري منذ بداية السبعينيات باهتمامه بالكتابة اللسانية ذات المنحى التجديدي والتوفيقي العربية، بعد قراءة مستفيضة في نصوص سيبويه (ت180هـ) وابن جني والجرجاني وغيرهم، محاولا صياغة هذه الرؤى في نظرية نسبا إلى الخليل (ت157هـ) وسميت باسم "النظرية الخليلية الحديثة"، إذ التراث اللغوي العربي قراءة دقيقة معمقة، فضلا عن تتبعه لما توصلت إليه أبحاث اللسانيات العربية، واكتشف السبل العلمية والرياضية التي ميّزت النظرية اللغوية العربية القديمة، فافتنح بفكرة إعادة إحيائها من جديد مع تبيان أصالتها، وتناول أصالة نظرية ما، هو تناول لما يميّزها عن غيرها من النظريات الأخرى، وأصالة النظرية الخليلية تكمن في تميّزها عن نحو المتأخرين من النحاة الذين تأثروا بالمنطق الأرسطي في بناء المفاهيم كما يكمن في تميّزها عن المنطق الأرسطي، وعن مختلف النظريات الغربية الحديثة (البنوية والتوليدية التحليلية...). فما هو مفهوم الأصالة عند الحاج صالح؟ وماهي الأسس التي بنيت عليها النظرية الخليلية؟ وأين يكمن تميّزها عن باقي النظريات؟

الكلمات المفتاحية: الأصالة، النظرية، الخليل، التراث.

Abstract.

"Abd al-Rahman al-Hajj Salih (1927-2017), the Algerian linguist, was known since the beginning of the seventies for his interest in linguistic writing with a regenerative and conciliatory orientation in Arabic, after extensive reading in the texts of Sibawayh (180 AH) and Ibn Jenni and al-Jarjani and others, trying to formulate these visions in the theory of their lineage to Khalil (157 AH) and it was called "the modern Khalili theory", as the Arab linguistic heritage is an accurate and in-depth reading, as well as following what the researches of Arab linguistics reached, and discovered the scientific and mathematical methods that distinguished the ancient Arab linguistic theory, so he was convinced of the idea of reviving it anew while demonstrating its originality, and addressing The originality of a theory is an examination of

what distinguishes it from other theories, and the originality of the Khalili theory lies in its distinction from the approach of later grammarians who have been influenced by Aristotelian logic in building concepts as well as in its distinction from Aristotelian logic and from various modern Western theories. So what is the concept of authenticity for Hajj Saleh? What are the foundations upon which the Khalili theory was built? And where is its distinction from other theories?

Key words: originality, Theory, al-khlil, Heritage.

مقدمة:

عرف الدرس اللساني العربي تطورا كبيرا؛ وذلك منذ اتصال الثقافة العربية باللسانيات الحديثة في العالم الغربي عن طريق البعثات العلمية؛ إذ نشطت عملية التأليف في هذا العلم الحديث قصد التعريف به وبمختلف مدارس ومناهجه ثم انتقل هذا النشاط من مجرد التعريف بهذا العلم، وترجمة المؤلفات الغربية التي أسست له، إلى النظر في اللغة العربية بالاعتماد على معطيات اللسانيات، سعيا لجعل البحث في هذه اللغة يتسم بالعلمية. وقد اتجه هذا النظر في اللغة إلى البحث في التراث اللغوي العربي من خلال الموروث اللغوي الذي خلفته ثلة من علماء العربية القدامى، خاصة ما تعلق منه بالنحو؛ حيث حاولت الجهود العربية الوصول إلى وضع نظرية جديدة للنحو العربي تسير اللغة العربية في شكلها الحديث وتسعى إلى تيسير النحو، فبرز في هذا المجال عدّة اتجاهات تأثرت في عمومها بالنظريات اللسانية الغربية وقد صنفت هذه الجهود في تيارات تنظر إلى اللغة العربية وفق المبادئ التي بنيت عليها تلك المدارس الغربية، من منهج وصفي بنوي؛ اتبع أصحابه طريقة الوصفين الغربيين في تعاملهم مع النحو التقليدي فجاءت نظرتهم إليه نظرة ناقدة، يدعو أصحابه إلى رفض كثير من مقولات النحو العربي واقتراح بعضهم بدائل اعتبروها قادرة على وصف اللغة العربية أفضل من مقولات التراث ويبرز في هذا الاتجاه كلّ من "عبد الرحمن أيوب"، "وتمام حسّان"، و"إبراهيم السامرائي". ومنهج آخر تحويلي أو تفسيري؛ قام على مبادئ وأسس النظرية التوليدية، ويبرز ضمن هذا الاتجاه كلّ من "مازن الوعر" و"عبد القادر الفاسي الفهري"...، وقد تأثر هؤلاء في منهجهم هذا بما جاء به "نوم تشومسكي" ومن التفوا حوله، هذا إضافة إلى المنهج الوظيفي، الذي تبرز في هذا المجال أعمال "أحمد المتوكل" الذي نقل النظرية الوظيفية إلى الثقافة العربية، وحاول إعادة بناء النحو العربي وفق هذا الاتجاه(1).

كان حال كلّ هؤلاء في ذلك إمّا اتّباعا للمناهج الغربية تتبعا مطلقا أو توفيقا ما بينها وبين تراثنا اللغوي الزاخر بالكنوز، مثلما نجد عند "نهاد الموسى"، و"عبد القادر المهيري"، و"ميشال زكريا"، إضافة إلى أحد أهمّ أعلام الجزائر وهو الدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" (2) – رحمه الله- . ولا يمكن أن يتحقّق هذا المسعى عند العرب إلّا من خلال "الكشف عن جوانب من التفكير اللغوي عند العرب تتفق وعلم اللغة الحديث سعيا وراء تأصيل هذا التراث وفق نظريات علم اللغة تمهيدا للكشف عن نظريته الأصيلية" (3) كما يمكن أن يتحقّق أيضا من خلال محاولة إثبات "وجود نظرية دقيقة في أصولها ومفاهيمها في النحو العربي

الأصيل فيما تركه لنا أجدادنا المبدعون من أمثال "الخليل" و"سيبويه" ومن تلاهما. وهذا عن طريق إعادة قراءة التراث ليس على ضوء النظريات الحديثة فقط، وإنما بدراسة إبستمولوجية (معرفية) دقيقة لمفاهيم النحاة، وتصوّراتهم، وطرق تحليلهم، وبدون إسقاط أي تصوّر آخر لتصوّر النحاة العرب المتأخرين أو تصوّر الغربيين لها. (4) ومن يتتبع الأبحاث الخاصة بـ "الحاج صالح" يلمس عنده هذا الاتجاه نحو إثبات أصالة القضايا اللغوية العربية والنحوية منها خاصة، وما نسبته نظريته اللغوية إلى "الخليل بن أحمد الفراهيدي" دليل على هذا التوجّه، وعلى ما قدّمه من جهود لسانية فيما يعرف بـ "النظرية الخليلية الحديثة".

1- التعريف بالنظرية الخليلية الحديثة (المنطلقات، المحفّزات، والغايات):

عُرف الحاج صالح منذ بداية السبعينيات باهتمامه بالكتابة اللسانية ذات المنحى التجديدي والتوفيقي، في ضوء ما اكتشفه من رؤى ثاقبة للتحوّين العرب القدماء في النظرية العربية، بعد تمحيص عميق وقراءة مستفيضة في نصوص سيبويه (ت180هـ) نفسه، فضلا عن ابن السراج (316هـ)، وابن جني (392هـ) والجرجاني (481هـ) والرضي الإستراباذي (ت687هـ) (من أرصن العلماء وأكثرهم أصالة وهو شاذ في زمانه) محاولا صياغة هذه الرؤى في نظرية نسبيها إلى الخليل وسمّيت هكذا بالتغليب؛ لأنّ الخليل وإن كان هو العماد فيها إلّا أنّه أخذ كثيرا عن شيوخه، وكذلك فإنّ سيبويه لم يكن من المقلّدين أبدا بل أثرى هذه النظرية هو ومن جاء بعده كالأخفش الأوسط (ت215هـ)، والمازني ولا سيّما مدرسة ابن السراج (ت316هـ): مثل أبي عليّ الفارسي (377هـ)، والرّماني (ت384هـ)، والسّيرافي والزّجاجي... (5) أو من جاء بعده، ممّن لهم الأهميّة الكبرى في إعطاء التراث الصورة العلمية التي نعرفها الآن؛ وفي هذا الصّد يقول: "إنّ العلماء العرب في علوم اللّسان الذين سنتطرق إلى أعمالهم هم المبدعون منهم أي العلماء الذين أسّسوا هذه العلوم وفروعها وتم نموّها على أيديهم وذلك من القرن الثاني الهجري إلى القرن الرابع وبعض من جاء بعدهم من العباقرة، ثمّ إنّ ما تطرق إليه أحد هؤلاء النحاة المبدعين وهو سيبويه في كتابه- وهو أقدم ما وصل إلينا من كتبهم وأوفاهما، وبالتالي يحتوي على ما عالجه أصحابه وأتباعه- هو أساسا الجانب التّحوي الصّرفي الصّوتي للغة، ولم يكن هذا الميدان مع ذلك مجرد نحو وصرف، لأنّه لم يهمل أبدا الجانب الدّلالي لأنواع الأبنية والتراكيب العربية من جهة، ومن جهة أخرى المعاني الخارجة عن دلالة اللفظ كدلالة الحال وغيرها... وكلّ هذا يدخل في الميدان الواسع المسّعى بعلوم اللّسان وإن لم يغط جميع ما تحتوي عليه شعبه مثل البلاغة والمعجميات والعروض وغير ذلك" (6).

استغرب الحاج صالح أن تكون هذه الأعمال التي لا تقل أهمية عن أعمال أكبر العلماء المحدثين في العلوم الأخرى مجهولة تماما عند أكثر الناس بل ومجهولة تماما في كتبها وجوهرها عند الكثير من الاختصاصيين المعاصرين (7) ولكنّه في الآن ذاته يصرّ على أصالة هذه الأعمال، وعكف على البرهنة على موقفه هذا، إذ لا تفوت تظاهرة علمية، أو مؤلّفا من مؤلفاته، إلّا أكّد على إيمانه العميق بمذهبه هذا، ففي تناوله للقضايا اللغوية، يبيّن دائما وجه الأصالة في هذه القضايا عند العرب، فهو من أكثر اللغويين العرب المحدثين انتصارا لما قدّمه النحاة الأوائل وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، حتى وصل الأمر إلى بعض المطّلعين على أعماله بوصفه متحيّزا ومتعصّبا للتراث اللغوي العربي ولعلّ في أحد تعليقاته التي نوردها

هاهنا تأكيداً لهذه الملاحظات؛ إذ نجده يؤكد على أن " للعرب أيضاً وخاصة-الخليل- نظرة أصيلة فيما يخص الأصوات والنظام الصوتي، فلمهم من المفاهيم في ذلك ما لا يوجد إطلاقاً في الصوتيات التقليدية الغربية وذلك مثل مفهومي الحركة والسكون ومفهوم المدّ، فهذه أشياء لم تعرف قيمتها إلا عندما اختبرت المفاهيم اليونانية التقليدية كالمقطع (syllabe) وغيرها"(8)

فأصالة الدّراسات العربية، وعدم ارتباطها بأيّ من الحضارات السابقة لها حتّى وإن تقاطعت معها في بعض الآراء- وهذا طبيعي كون مادة الدّراسة هي اللغة والقضايا اللغوية تتشابه في كثير من الأحيان- هو ما يحفظ الهوية العربية لهذه الدّراسات ويعطيها قيمتها الحضارية، وهذا لا يعني بالضرورة أنها تختلف تماماً عمّا جادت به القريحة البشرية منذ قرون بعيدة في النظر إلى اللغة، فقد تلتقي معها في بعض القضايا(10) وحتى في المنهجية، وفلسفة العلم لكن ما يجعلها أصيلة هو تميّزها في الطرح والإجراء والطابع العلمي الذي تتميّز به فالحاج صالح يؤكد أنّ " النحو العربي قد وضع على أسس إبستمولوجية مغايرة لأسس اللسانيات البنوية وخصوصاً في المبادئ العقلية التي بنيت عليها تحليلاته، هذا وليس الاختلاف متوقفاً على هذا الجانب بل هناك أيضاً اختلاف آخر في النظرة إلى البحث في اللغة نفسه وتدوين الكلام من أجل التحليل"(11).

إنّ الفكر اللساني عند الحاج صالح مرتكز أساساً على الدّراسات اللغوية العربية القديمة، فهي من قبيل إحياء التراث لكن بطريقة خاصة تنبني على التفكير العلمي الحديث، والاستفادة من المناهج الغربية، خاصة النحو التوليدي التحويلي عند " نوم تشومسكي"، لكن دون الانسياق تماماً خلف تلك النظريات، وتجلى ذلك من خلال النظرية الخيلية الحديثة. وعندما سُئل في إحدى محاضراته، هل أنتم من المحافظين؟ أجاب: لست محافظاً ولا مجدداً، ولكن أبحث عن المفيد اكتشفنا في القديم شيئاً عظيماً لم نجده في الحديث، ولو اكتشفناه في الحديث لأخذنا به(12).

وبإجابته هذه يكون منهجه في النظرية اللغوية لا المحافظة على التراث اللغوي العربي القديم، ولا تجديداً فيه، إنّما هو سيرورة للعلم اللغوي وصناعة فيه، هذه الصناعة لا تفرضها أفكار تبعية حتمية لا للقديم، ولا للجديد، بل هي نمذجة خاصة مبنية على الاكتشاف لا التقليد الأعمى؛ فقد قرأ الدكتور الحاج صالح التراث اللغوي العربي قراءة دقيقة معمّقة، فضلاً عن تتبّعه لما توصّلت إليه أبحاث اللسانيات العربية، واكتشف السبيل العلمية، والرياضية التي ميّزت النظرية اللغوية العربية القديمة فاقتنع بفكرة إعادة إحيائها من جديد، وأثر أن تكون في النظرية الخيلية الحديثة التي تعدّ امتداداً مباشراً للنظرية الخيلية القديمة التي وضعها الخليل وسيبويه ومن جاء بعدهما من العلماء الأفاضل أمثال " أبي علي الفارسي"(13)؛ فنظريته من باب التجديد في النحو، وقد نافس بها ما استجد من نظريات غربية وعربية فضلاً عن ترسيخ المفاهيم النحوية العربية الأصلية، ومسايرة العصر، وإظهار ما فيها من الروح العلمية والمنطق الرياضي الذي مكّتها من أن تستغلّ في مجال اللسانيات الحاسوبية وتعليمية اللغات.

ومما لا يخفى أنّ المتنبّع للنظرية الخليلية الحديثة يرى أنّ خلفها الكثير من الأهداف العلمية(15) لعلّ أبرزها ما ذكره الحاج صالح من أنّه لابدّ من "الرجوع إلى التراث العلمي اللغوي الأصيل... والنظر فيما تركه أولئك العلماء الفطاحل الذين عاشوا في الصّدر الأوّل من الإسلام حتّى القرن الرابع الهجري وتفهم مآقالوه وأثبتوه من الحقائق العلمية التي قلّما توّصل إلى مثلها كل من جاء من قبلهم من علماء الهند واليونان ومن بعدهم كعلماء اللّسانيات الحديثة في الغرب"(16) ويؤكد الحاج صالح على الفئة من العلماء الذين يقصدهم بكلامه، والذين يتّصفون بصفات تميّزهم عن غيرهم ممّن عاصروهم، وفي هذا الصّدّد يقول: "ولا بدّ من التنبيه ههنا أنّ الذين نعنهم هم العلماء الأوّلون الذين عاشوا في زمان الفصاحة اللّغوية العفوية، وشافهوا فصحاء العرب وقاموا بالتحريّات الميدانية الواسعة النّطاق للحصول على أكبر مدوّن لغوية شهدها تاريخ العلوم اللّغوية، وتمكّنوا من ضبط أنجع الطّرق التحليلية لوصف المحتوى اللّغوي لهذه المدوّنّة، ثمّ استنباط القوانين النّحوية الصّرفية البلاغية منها مع تحليل منطقي عجيب لكلّ ما شدّ عن هذه القوانين، ثمّ صياغة رياضية لمجموع هذه الأوصاف والتّعليلات ممّا لا يقلّ قيمة عمّا هو موجود الآن في ميدان العلوم اللّسانية."(17)

هذا وقد أشار إلى الذين جاؤوا بعدهم وقصّروا خلا بعض الاستثناءات إذ يقول: "وأما الذين جاؤوا بعدهم فكانوا عالة عليهم؛ لأنّهم ظهروا في العصور التي دخل فيها الفكر العربي في سبات يكاد لا ينتهي(ولا بدّ من استثناء بعض العباقرة وكانوا شواذا وغرباء في عصرهم كالرضيّ الإستراباذي في القرن السادس)."(18)

هذا ويحتاج الباحث -في نظره- لفهم أغراض النّحاة الأوّلين المبدعين حقّا لهذه المفاهيم السّابقة لأوانها، إلى أن يكون له علم بما جاءت به اللّسانيات الحديثة بجميع مذاهبها، ولا يقتصر على نظرية واحدة، وأن يكون له علم بكلّ ما وجّهه اللّسانيون الغربيون أنفسهم من انتقادات لمختلف هذه النّظريات، وأن يتجرّد في الوقت نفسه من كلّ فكرة سابقة إزاء التراث العلمي العربي وإزاء كلّ قديم عامّة، ولا يسقط على هذا التراث مفاهيم اللّسانيات، إنّما الذي يجب أن يقوم به هو أن يتسلّح بمنهجية البحث العلمي الحديثة ومفاهيم الاستمولوجية الحديثة؛ فإذا حاول أن يقوم مفهوما قديما فهذه المناهج العلمية الحديثة التي بنيت على التّصحّح لكلّ السيّاقات التي وردت فيها الكلمة التي يجهل غرض مستعملها في نصّ معيّن، والاعتماد على ذلك وعدم الاكتفاء بما جاء عند الشّراح.(19)

وبذلك تؤكّد النّظرية دور الفكر العربي الأصيل، وموازنتها مع المناهج اللّسانية المعاصرة، فهي تسعى لبناء مقوّمات عدّة تتمثّل في: "تحليل اللّغة ونظامها أليّا، وهي تقوم على إحياء المبادئ التي وضعها النّحوي الخليل الفراهيدي- صاحب العروض ومؤسّس علم الأصوات- إحياء اجتهاديا لا تقليديا أعمى يعكس الجوانب المحورية لهذه المدرسة(20).

إنّ هذه الجوانب هي الأسس العلمية التي شكّلت لنا أركان هذه النّظرية وقدّمها بعرض لغوي جديد

ينم عن الإبداع والفكر اللغوي المتطور؛ إذ سعى الحاج صالح منذ ظهور النظرية الخليلية إلى بعث الجديد عبر إحياء المكتسب فتجاوز مرحلة الاقتباس السلبي عند نقلها عن الغرب، أو عند نشرها عن العرب(21).

2- مميزات النظرية الخليلية الحديثة:

- يذكر الحاج صالح أهم المزايا التي انمازت بها هذه النظرية وهي:(22)
- أ- الموضوعية العلمية: فهي تعتمد على المشاهدة، وهي بذلك علم وليست مجموعة اختيارات تعسفية تفرض معيارا معيناً وتهدر المعايير الأخرى.
 - ب- التمييز بين ماهو راجع إلى التغيير الزماني، أي التاريخ عبر الزمان، وبين ماهو آني (Synchronic) خاص بالنظام الباطني للغة.
 - ج- اللجوء إلى الصياغة المنطقية الرياضية... وهذا من أهم ما تمتاز به العلوم الإنسانية عن غيرها كالآداب والفلسفة (كلما كانت النظريات في هذه العلوم أكثر نجاعة أو أكثر طواعية للصياغة كانت أعظم دقة وأقرب إلى نظريات العلوم الدقيقة) وغير ذلك من المزايا.

وتجدر الإشارة إلى أنه نبّه على الباحثين- في العصر الحديث- بعدم جعل اللسانيات الغربية الحديثة مقياسا مطلقا يجب أتباعه والاحتذاء به ولا يجوز الخروج عنه؛ إذ أنّ اللسانيات لم تبلغ من الرقي ما بلغته العلوم الفيزيائية والبيولوجية وغيرها، أمّا العلوم الإنسانية- وخاصة اللسانيات- فلم تبلغ بعد هذا الشأن، بحيث يصعب على الباحث العربي أو غير العربي أن يدحض بعض مبادئها الأساسية ويأتي بالبديل. وهذا لا يعني أنها لم تأت بجديد، على العكس فقد كانت نتائج البحوث فيها رائعة، لكنّ هذا لا يبرّر الخضوع لكلّ ما جاءت به خاصة تصوّراتها وفرضياتها(23).

ولا يخفى ما للخليل وأتباعه من أهمية لا يمكن تجاهلها، بيد أنّ كثيرا ممّا أبدعه هؤلاء العلماء قد اختفى واستغلّق فهمه على المحدثين، وأنّ خطورة هذا التراث الخليلي العظيم هي على قدر خطورة ما سيصير إليه مستوانا العلمي واتجاهنا الفكري" فإمّا أن نبقي عالمة على تراث المتأخرين(24) كما هو الحال في الوقت الحاضر ويستمر تجاهلنا للنّحاة الأولين بل وجهلنا المطبق لمفاهيمها ومنهجيتهم مع التقليد الأعمى لا لهؤلاء المتأخرين فقط، بل أيضا لما يقوله اللسانيون الغربيون من دون أي تمحيص، وإمّا أن نحاول المقارنة التقويمية العلمية بين كلّ هذه الاتجاهات بقصد الوصول إلى مفاهيم دقيقة أصلية ذات نجاعة كبيرة في الميدان العلمي والتكنولوجي، وهذا الاختيار الأخير هو الذي اختارته ما يسّى في زماننا بالنظرية الخليلية الحديثة(25). وكانت دراساته لأعمال هؤلاء العلماء غاية في العمق والموضوعية، لا يشوبها أي تحيّز، وتخلو من أيّ حكم جاهز فكان لا يتعصّب للقديم باسم التراث، ولا يناصر الغربيين باسم الحداثة، لأنّ الأصالة عنده تقابل التقليد لا الحداثة والتقليد يؤدّي إلى الجمود والتشويه، وهما يقوّضان الإبداع ويفتكان بكلّ عمل أصيل(26).

إنّ موضوعيته الحقّة جعلته لا يقبل إلّا بسلطة العلم، إذ انقطع له بجديّة قلّ مثيلها وبروح حرّة لا تنحاز إلّا إلى الحقيقة، فكان يُخضع كلّ الأقوال للنقد والتّحقيق مهما كان مصدرها، عند القدماء أو عند المحدثين، عند العرب أو عند الغربيين، وأن يحرص على احترام العالم مهما كان انتماءه، ولا أحد ينكر قيمة الأعمال التي قدّمها للسانيات العامّة والعربية على وجه الخصوص، رافع بكلّ موضوعية عن أصالة البحث اللّغوي العربي في القرون الأربعة الأولى للهجرة ودافع بكلّ استماتة عن خلو النّحو العربي من منطق أرسطو في القرنين الأوّلين، وهذا منذ أكثر من أربع وأربعين سنة وقد أبدى حينها كفاءة عالية في عرض الحقائق التّاريخية وكشف الزائف منها، ولا يقدر على هذا إلّا من كان واسع الاطلاع على مصادر الدّراسات اللّغوية عند العرب والغربيين على حدّ السواء، في دراسة اللّغة، مميّزًا بين أصول هذه عارفا بأصول تلك، مزوّدًا بمعرفة دقيقة واعية لمنطق أرسطو وهي صفات قلّما تجتمع عند الباحث العربي في زماننا (27). ومن أجل معرفة قيمتها وتميّزها – التّظريّة الخليلية- حاول متبنّوها مقارنتها بأحدث النّظريّات اللّسانية الحديثة كالنّظريّة البنيويّة والنّظريّة التّوليديّة التّحويليّة، والمطلّع على هذه النّظريّة تأخذه الحيرة والعجب، حيث يجد نفسه يطرح السّؤال الآتي: لماذا يُقبل اللّسانيّون العرب على هذه النّظريّات الغربيّة وفي أيديهم نظريّة لا تقلّ علميّة (وربما هي أدق) مما قدّم عند الغربيّين؟ ولماذا هذا التّغيب الكلّيّ لكلّ ما له تعلق بالتّراث اللّغويّ العربيّ؟ (28).

ومن بين الأسباب التي يوردها الحاج صالح لتفسير هذه الغربة المسلّطة على هذا التّراث العربيّ العلميّ أنّها "أولاً: المعرفة السّطحيّة للتّراث وللمفاهيم العلميّة الحديثة بما فيها العلوم الدّقيقة وعلم المعرفة العلميّة (الابستمولوجيّة) وثانياً: استغلاق ما تركه الفطاحل من علماء الصّدر الأوّل على أفهام الكثير من المتأخّرين والمحدثين (وقد يكون ذلك مسبّباً بالسّبب السّابق) ثالثاً: الخضوع المطلق لما قاله الغربيّون في القرن الماضي (حتى نهاية النّصف الأوّل من القرن العشرين) أنّ تطوّر المعرفة هو خطّيّ تسلسليّ: من البدائيّ إلى ما هو أرقّ منه (أوغست كونت الفرنسي) وهذا غير صحيح بالنّسبة إلى الفكرة العلميّة الواحدة؛ لأنّ الرّقّيّ العلميّ قد يتحقّق عند قوم فجأة في وقت ما لبعض الأسباب ثمّ يتوقّف عندهم الإبداع وتختفي بعض الأفكار، ثمّ يكتشفها غيرهم من جديد ربما في إطار تاريخي آخر وتصور آخر عند غيرهم بعد زمان وقد يكون طويلاً" (29). تنطلق هذه النّظريّة في قراءتها للتّراث وتأصيل أفكاره من منطلقين أساسيين هما: (30)

- أ- لا يفسّر التّراث إلّا التّراث، فكتاب "سيبويه" لا يفسّره إلّا كتاب "سيبويه". ومن الخطأ أن نُسقط على التّراث مفاهيم وتصورات دخيلة تتجاهل خصوصياته النوعية.
- ب- أن التّراث العربي في العلوم الإنسانيّة عامّة واللّغوية خاصّة ليس طبقة واحدة من حيث الأصالة والإبداع فهناك تراث وتراث!

فالتّراث الذي تعلّقت به النّزعة الخليلية الحديثة هو التّراث العلمي اللّغوي الأصيل الذي تركه أولئك العلماء المبدعون الذين عاشوا في زمان الفصاحة اللّغوية الأولى، وشافهوا فصحاء العرب، وقاموا

بالتحرّيات الواسعة النطاق للحصول على أكبر مدونة لغوية شاهدها تاريخ العلوم اللسانية. وأما الذين جاؤوا من بعدهم فكانوا عالة عليهم، إذ ضيّقوا حدود النحو الواسعة، واستبدلوا مفاهيم القدماء الإجرائية النشطة بمفاهيم أخرى جامدة تأملية(31)، مع بقاء نفس الألفاظ التي تدل عليها في الغالب(32).

والذي حقّز المشتغلين بهذه النظريّة أكثر هو صحّة الأوصاف و التحليلات التي قدّمها هؤلاء العلماء والتي قد تفوق في أحيان كثيرة ما توصلت إليه اللسانيات الغربيّة؛ يقول الحاج صالح: "ازدهرت البحوث اللغويّة الحديثة بفضل ما وضعه العلماء من نظريّات عميقة حول اللّغة، وبفضل ما تحاوله هذه البحوث من استثمار واسع لهذه النظريّات، ومستقبل كلّ البحوث اللّغويّة مرهون في اعتقادنا، بمدى نجاح هذا الاستثمار بالنّسبة لكلّ لغة والذي نريد أن ينتبه إليه إخواننا الباحثون هو وجود نظريّة استخرجها بعض الباحثين الجزائريّين ممّا أخرجه علماء النّحو الأوّلون وبنيت هذه النظريّة على عدد من المفاهيم والتّصورات قد لا يوجد في اللّسانيات الحديثة ما يماثلها بل قد تفوقها إلى حدّ بعيد، وهذا ما حاولنا أن نبرهن على صحّته بتحرير هذه النظريّة وصياغتها صياغة منطقية حتى يمكن أن نقارن بينها وبين النظريّات الحديثة"(33).

ومن ثمة فتراث يمثل هذه القيمة العلميّة يفرض على كلّ من رام الموضوعيّة إعادة اعتماده أساسا ومنطلقا لا تهميشه وتقزيمه فما صحّ منه قبل، وما بطل بالحجّة والدليل، فهو باطل، ويكاد "يجمع العرب في وقتنا الحاضر على أنّ المحافظة على التّراث العلميّ العربيّ والرجوع إليه أمر ضروريّ لا حبا في القديم في ذاته، ولا للمحافظة من أجل المحافظة، فهذا وإن كان كثيرا في أيّامنا إلّا أنّه قد قلّ أنصاره بتعميم التّعليم وانفتاح العقول على العالم، على أنّ أكثر النّاس يجعلون التّراث الفكريّ العربيّ واحدا، فما دام هو تراثا وركنا، إذن من أركان هويّتنا فكّله حسن لا كلام فيه وهنا يكمن الخطر إذ التّراث الذي يتّصف بالإبداع والتّألي بالأصالة غير التّراث الذي يسوده التّقليد والتّألي الجمود الفكري"(34) فهو يتّصف بالمرتبطة بالصّحيح لا بالفاسد، مربوطة بالمبدع الأصيل ومن ثمة فلا مكان للتّقليد، حتى وإن كان هذا المقلّد تراثا(35). وفي هذا الصّد يقول الحاج صالح: "والذي زاد الطّين بلّة هو أنّ بعض معاصرينا ممّن حظي بالاطّلاع على ما ظهر في الغرب من آراء أو نظريّات جديدة ... في الطّواهر اللّغويّة وما إليها من الدّراسات الجديدة التي تنتهي إلى ما أسموه بالـ Linguistics أرادوا أن يطبّقوا على العربيّة هذه النظريّات... دون نظر سابق... كأنّها حقائق مسلّمة تنطبق على كلّ لغة، وليتهم فعلوا ذلك للاختبار، وبيّنوا بعد الاختبار مدى ملاءمتها للعربيّة والتّألي قدرتها على استيعاب الطّواهر المختلفة"(36).

ولذلك دعا في كثير من مقالاته، إلى تجنّب هذا التّعسف "بالبحث أولا عن أصول المفاهيم الغربيّة للتمييز بين ما هو جديد حقّا، وما هو قديم جدّا لم تأت به العلوم ولا التّقنيّات الحديثة، بل توارثه النّاس جيلا بعد جيل، وقد بيّن العلماء بعد ذلك أنّه تصوّر وليس بحقيقة ملموسة مجمع على صحّتها، ثمّ البحث عمّا كان يقصده العلماء العرب بالفعل في أقوالهم التي تركوها لنا في كتبهم، مثل كتاب

سيبويه وشروحه" (37) بل أكد أنّ " التّقدّم الذي نريد أن نحققه في علوم اللّسان النّظرية والتّطبيقية وفي علم العربية خاصّة لن يتمّ، في نظرنا، إلّا بتحقيق شيئين اثنين: أولاً الاختبار المتواصل لجميع النّظريات بالتكنولوجيا الحديثة، وثانياً الرّجوع إلى التّراث الأصيل (وترك غير الأصيل) مع مواصلة البحث انطلاقاً مما تركه لنا علماؤنا القدامى المبدعون" (38).

ويتحدّث عن المحفّزات الأولى التي حرّكت أصحاب النّظرية الخليلية الحديثة إلى إعادة الاعتبار (إعادة التّحديث) لهذا المنجز التّراثي الخليلي قائلاً: "والذي جعلنا نفكر في حادثة أفكار النّحاة الأوّلين ممن عاصر الخليل وأتباعه وأصالتها خاصّة... هما شيان اثنان: أولاً: الفوارق الكبيرة جدّاً التي تفتقر بها أفكار أولئك النّحاة عن الأفكار النّحوية العربية التّقليدية (مثل ما نجده عند ابن مالك مثلاً وشروح مؤلفاته)، فالنّصّور العلميّ يختلف فيهما تماماً وأما الثّاني فهو ما أجمع عليه النّاس في وقتنا؛ فقد لاحظ كلّ معاصرينا أنّ الأفكار الأساسيّة التي بني عليها التّحليل عند الخليل هي رياضيّة محضّة، فهذا شيء لا يتّفق مع ما يتصوّره اللّسانيّون في الوقت الحاضر؛ فإن كان النّحو العربيّ في زمان الخليل وسيبويه بدائيّاً بالنّسبة للسانيّات الحديثة فما هذا الاتجاه الرّياضيّ الذي أجمع معاصروننا على الاعتراف بوجوده عند الخليل؟ ثمّ لننظر إلى هذا الذي يقال إنّه نزعة رياضيّة ما هو." (39).

3- المفاهيم الأساسيّة للنّظرية الخليلية:

إنّ المفاهيم الأساسيّة لهذه النّظرية، تعدّ اللّبنات الرّئيسة لتحليل الظاهرة اللّغوية، وفي عرض مفاهيمها الأساس دعوة إلى تبنيها وترك التّماهي فيما ينجزه الآخر الغربيّ دعوة إلى التّمسك بما صحّ من هذا التّراث والعمل على إثرائه وتطويره. إنّ المطّلع على ما كتبه الحاج صالح فيما يتعلّق بهذه النّظرية يجده يركّز على ما يشكّل الأرضيّة المنهجية والمصطلحاتيّة الأصيلة، المستنبطة من التراث العربيّ الخليلي، ومن أهمّها المفاهيم والمبادئ المعتمدة في النّظر إلى اللّغة وتحليلها عند الخليل ومن تبعه، ومن أبرزها (40) - مفهوم الاستقامة وما إليها، وما يترتّب على ذلك من التّفريق المطلق بين ما يرجع إلى اللفظ وبين ما هو خاصّ بالمعنى. - مفهوم الانفراد في التّحليل وما يتفرّع من هذا المفهوم. - مفهوم الموضوع والعلامة العدميّة. - مفهوم اللفظة والعامل. وإلى جانب هذه المفاهيم يمكن ذكر مفاهيم أخرى متفرّعة عنها، مثل: مفهوم الأصل والفرع مفهوم التّفريع، مفهوم القياس... وعلى كلّ، فهذه المفاهيم تقودنا إلى نقطة مفادها أنّ هذه النّظرية قد استطاعت أن تحقّق لنفسها كفاية علميّة (من حيث وضوح التّصوّر، ووضوح الأهداف وكفاية في المفاهيم) (41) وقد راح الحاج صالح يبحث في الماضي، وفي الحاضر ليتّخذ من الماضي دليلاً على أصالة نظرية النّحو العربيّ ولا سيّما في المبادئ العقليّة التي بنيت عليها ومن الحاضر دليلاً على تلاقي أنظار النّحو العربيّ مع أنظار المدرسة التّحويلية التّوليدية، ولكنّ في النّحو العربيّ أنظاراً غير تحويلية، فالأولى الإقلاع عن بحث مسائل التّأثير والتّأثير لقلّة جدواها، والأولى عقد حوار مع كلّ المناهج الحديثة من غير حصر النّحو العربيّ في منهج واحد بشرط ألاّ تكون المناهج الحديثة معايير لتقويم النّحو العربيّ بل أساليب استئناس.

4-أصالة النظرية الخليلية:

إن تناول أصالة نظرية ما، هو تناول لما يميزها عن غيرها من النظريات الأخرى، أو هو رسم للحدود التي تميز ما قدمه فكر ما من حيث المنطلقات وزوايا النظر المتخذة في معالجة ظاهرة ما (42) ولا يعني بحال من الأحوال القديم فالأصيل لا يساوي أو يعني القديم، إنها، كما يقول الحاج صالح، "الشيء الذي لا يكون نسخة لغيره"، ولا شك أن في هذا دعوة صريحة إلى نبذ التقليد الأعشى؛ التقليد الذي يفتقر إلى الدليل الصحيح؛ وأصالة النظرية الخليلية تكمن في تميزها عن نحو المتأخرين من النحاة الذين تأثروا بالمنطق الأرسطي في بناء المفاهيم (أمثال ابن مالك...)، كما يكمن في تميزها عن المنطق الأرسطي، وعن مختلف النظريات الغربية الحديثة (البنوية والتوليديّة التحويلية...).

ويمكن بسط القول في هذه الأصالة، بالتركيز على نوعين من التأصيل (اعتمدهما الحاج صالح في جلّ مقالاته) هما التأصيل من الدّاخل، وذلك حين يتعلّق الأمر ببيان تميّز النظرية الخليلية الأصيلة عن النظرية النحوية عند المحدثين من النحاة، والتأصيل من الخارج حين يتعلّق الأمر ببيان تميّزها عن كلّ الأفكار والنظريات الغربية القديمة أو الحديثة.

4-1: التأصيل من الدّاخل: يرى الحاج صالح أن النّحو العربيّ الأصيل هو "النّحو الذي طوّره وأنضجه الخليل بن أحمد مع بعض زملائه وأتباعه وخاصة سيبويه، وأكثره مبني على مفاهيم منطقية رياضية" (43) ذلك أنّه نحو متميّز وليس نسخة لغيره، فهو نسخة عربية متميّزة بمنطلقاتها وتصوّراتها وأسئلتها التي كانت تطرحها، وإلى جانب كلّ ذلك هي نسخة مستفاعة من كثرة النّظر في هذه اللّغة، ولم يفرض عليها أيّ شيء خارجيّ عنها. وإذا كانت هذه هي حال النّحو مع النّحاة الأوائل، فإنّ هذا النّحو قد تبدّل وتغيّر بعد القرن الرّابع، حيث لم تعد المنطلقات هي تلك المنطلقات الأصيلة التي كانت عند سابقهم، فقد اختلطت جلّ مفاهيمهم بالمنطق اليوناني ومن ثمة اصطبغت بصبغة مخالفة تمام المخالفة لما أورده النّحاة المتقدّمون أمثال الخليل وسيبويه، يقول الحاج صالح: "أمّا ما صار إليه بعد القرن الرابع فهو أقلّ قيمة بكثير مما كان؛ أولاً لأنّ المنطق اليوناني، منطق أرسطو، كان قد غزا الفكر العربيّ، وكان ابتداء ذلك بالنّسبة للنّحو في عهد البغداديين (ابن السّراج وابن كيسان وغيرهما ممن تأثروا بهذا المنطق وهذا لم يحصل قطّ في زمان الخليل وسيبويه خلافاً لما يعتقد البعض) وقد أُلّع العرب بمفاهيم أرسطو المنطقية فالتبس على الكثير من النّاس المفهوم العربيّ الأصيل ... بالتّصور الخاصّ بأرسطو ... وأضاف إلى ذلك التّحوّل الذي أصاب العلوم الإسلاميّة وخاصة النّحو، فقد صار ابتداء من القرن السّادس عبارة عن سكولاستيك (scholastic) أي دراسات مدرسانيّة، الغاية منها التّعليم مع الجدل العقيم، وكلّ ما ظهر بعد ذلك فهو تقليد لا للفترة الأولى الخلافة بل لمؤسسي المدرسانيّة النّحوية كابن مالك وشراحه". (44)

4-2: التأصيل من الخارج: تأصيل النظرية الخليلية من منظور خارجي معناه إثبات أصالتها بنفي مختلف الرّوافد الخارجيّة (وخاصّة المنطق اليونانيّ) التي ظلّ أنّها التّمودج الذي احتُذي في بنائها ووضع

مصطلحاتها وتصوّر مفاهيمها، كما أنّه يندرج ضمن التّأصيل الخارجيّ لها إثبات تميّزها عن مختلف النظريّات اللّسانيّة الغربيّة الحديثة (البنويّة، والتّوليديّة التّحويليّة)، أو بعبارة أخرى نفي التّقليد وإثبات التّميّز (45) وقد حُصّ النّحو العربي ومنطق أرسطو بدراسة خاصّة ذهب منها إلى أنّ المنطق الأرسطي لم يؤثّر تأثيراً حقيقياً ملحوظاً على النّحو العربي إلّا في القرن الرّابع الهجري. وسنتطرق خاصّة إلى الحديث عن مختلف الرّدود الّتي ساقها والنّافية لفكرة تأثير المنطق الأرسطيّ على النّحو العربيّ.

3-4: مناقشة فكرة التّأثير المنطقيّ الأرسطيّ: (46)

ما رُوج له من فكرة تأثّر النّحو العربي بالمنطق الأرسطي مردّه إلى النّظرة المقلّلة من قيمة الدّات العربيّة وقدرتها على الإبداع والابتكار؛ حيث طرحت أسئلة عديدة كان أكثرها إلحاحاً: كيف استطاعت أمة أميّة أن تبني نظريّة بهذه الدّقة في وقت وجيز؟ إنّ هذا الأمر في رأي المشكّكين في أصالة هذه النّظرية شيء مستحيل ممتنع إلّا على سبيل الانتحال والاقتباس من الغير، ويقصدون بهذا الغير اليونانيين وتراثهم، ولاشكّ أنّ في هذا الادّعاء من الحيف والافتراء الشّيء الكثير؛ يقول الحاج صالح: "والغريب المقلق أنّ أظهر هذه الآراء الّتي ألّبت لباس البحث التّزيه هي الّتي تنفي كلّ طرافة للمناهج العربيّة في النّحو، وتُنكر أنّ يكون النّحاة العرب أخرجوا شيئاً جديداً لعجزهم أو عجز البيئة الاجتماعيّة العربيّة على الإتيان بهذا الصّنع المبتدع، وذهبوا يقارنون بين مصطلحاتهم وما تواضع عليه اليونان من قبلهم في علم النّحو ورأوا في تقسيم العرب للكلام تقسيماً أرسطوطاليسياً محضاً. ويا ليتهم ما فعلوا فينجوا من زلل لم يصب به أيّ عالم من قبلهم" (47) ذلك أنّ مجرد التّشابه في بعض المفاهيم لا يعني أنّ أحدهما ناقل عن الآخر مقتبس منه.

وأوّل من أثار فكرة أخذ العرب من اليونانيّين هما المستشرقان: جويدي (Guidi) ومركس (Merx)، وصار كلّ من يأتي بعدهما يرتاح إلى ما قالاه من غير نقد ولا تمحيص ولا مراجعة، حتّى من العرب المعاصرين أنفسهم، ومن أشهر من وافقهما وسار على منهجهما من العرب المعاصرين: أحمد أمين، وإبراهيم مدكور، ومهدي المخزومي... يقول الحاج صالح في هذا الصّدّد: "فمَن تصدّروا الخروج عمّا رسمه القدماء في ذلك هو: أحمد أمين... (حيث رأى) أنّ تأثير اليونان والسّريان في العصر الأوّل لوضع النّحو كان ضعيفاً، وأنّه ربما كان أكبر الأثر غير مباشر كاستخدام آلة القياس والتّوسّع بواسطتها في وضع القواعد النّحويّة، وجاء بعده إبراهيم مدكور فما زاد في أطروحته... على ما قاله علماء الغرب، بل اكتفى بالإشارة إلى أنّ التّأثير يظنّه وقع في وضع النّحو... وقدّم الأستاذ مهدي المخزومي كتاباً عن مدرسة الكوفة سالكا فيه هذه السّبيل بانياً جميع ما يثبته على القول بتأثير المنطق على النّحو، وبالاخصّص على مدرسة البصرة" (48).

والحقّ أنّ هذه الادّعاءات تفتقد الدّليل القاطع الّذي يثبتها، فعلى الرغم من اقتناع كثير من الباحثين بوجود هذا التّأثير إلّا أنّ أحداً منهم "لم يأت... بدليل قاطع" (49) وقد ناقش الحاج صالح القول

بهذا التأثير، مركّزا على الشّبهات المثارة (أغلب الشّبهات أثارها المستشرق مركس)، ومن بين ما ناقشه:

- "القول بضرورة مرور زمان طويل حتى تتكوّن المقاييس النّحوية"، مستشهدا على صحّة دعواه بالعلوم الإسلامية التي "امتازت عن علوم الأوائل في سرعة اكتسابها، وقد أجمع العلماء على حقيقة هذه الظّاهرة. ففي أقلّ من قرن خرج إلى الوجود نحو تامّ التّكوين سويّ الخلق منسجم الأطراف، ونجده في كتاب سيبويه، فهل هذا خرق للعادة المألوفة؟ نجيب بأن هذا ليس خرقا للعادة التي معناها (سنّة الكون) إنما هو خروج عن العادة المألوفة عند بعض النّاس، وأنه ينبغي أن نحلّ هذه الظّاهرة محلّها من الظّاهرة الكبرى التي قلبت أوضاع العالم القديم" (50) فتطوّر العلوم لا يسير وفق سنّة كونيّة لا محيد عنها، بل بحسب ظروف معيّنة فقد يتحقّق الرّقيّ العلميّ "عند قوم فجأة في وقت ما لبعض الأسباب". (51)

- "القول بضرورة اعتماد النّحو على المنطق وعلى المفاهيم الفلسفيّة"، ناقش هذا القول مركّزا على الخصوصيّة التي تمتاز بها اللّغة؛ فاللّغة الطّبيعيّة في جوهرها ليست منطقا صارما، "فالنّظام المنطقي غير النّظام اللّغوي الذي خلق للإفادة أي لتبليغ أغراض المتكلّم للمستمع Communication فهو آلة للتبليغ جوهره تابع لما ولى من أمر الإفادة، فهو إلى قوانين فنّ المواصلات أقرب منه إلى قواعد المنطق" (52) وقد راعى النّحاة العرب الوظيفة التي تؤدّيها اللّغة ألا وهي التّواصل، وما تطلبه من اقتصاد ومحاولة تجنّب للبس فبنوا قواعدهم على "مبدأ التّخفيف والفرق" (53) ذلك أنّ همّ المتكلّم هو "أن يبلغ أكبر عدد ممكن من الفوائد بأقلّ عدد ممكن من الجهود، وهذا أصل التّعليلات التي يشاهدها المطّلع على كتب النّحاة القدماء" (54) ومن ثمة فلا علاقة للتّصوّر النّحويّ العربي بالمنطق ولا بالفلسفة الأرسطيّة، لكن لا يجب أن يفهم من المنطق النّظر العقليّ؛ لأنّ النّظر العقليّ لا يخلو منه منجز بشريّ، بله نظريّة كبيرة كالنّظرية النّحويّة العربيّة، فالنّحو عند العرب هو نتاج النّظر في النّصوص ثمّ تجريدها، وهذا كلّ عمل عقليّ ومن ثمة فالمنطق المرفوض هو المنطق الأرسطي بمصطلحاته ومفاهيمه وليس المنطق العقليّ (55).

- "القول بأنّ العلوم لا تتطوّر دون مقدّمات أو تراكمات سابقة"، ومن ثمة فلا تفسير لهذا النّضج المبكّر إلّا القول إنّ علماء النّحو العرب قد أخذوا جلّ المفاهيم عن غيرهم (اليونان تخصيصا)، وقد فنّد هذا القول مرتكزا على التّاريخ وعلى بنية النّصوص النّحوية القديمة. أمّا اعتماد التّاريخ كمستند فلا سبيل فيه إلى إثبات هذا؛ "إذ لم يذكر أحد أنّ النّحاة القدماء العرب أخذوا من اليونان ولا من غيرهم معنى واحدا من معاني النّحو أو ما يقاربه، وقد عجب مركس وغيره من هذا الذي يسمّيه (سكوتا)، وحاول أن يعلّله بعدم انتباه المؤرّخين إلى أهميّة العلوم المنطقيّة بالنّسبة للنّحو" (56) أمّا بنية النّصوص النّحويّة العربيّة القديمة فلا وجود فيها لإشارة "ولو خاطفة إلى المصادر الأجنبية في كتب النّحاة الأقدمين، وهذا أيضا لا نعثر عليه بتاتا. فهذا كتاب سيبويه أقدم ما وصل إلينا نقرأ فيه أسماء كلّ شخص أدلى برأي في مفردة أو تركيب أو باب من أبواب النّحو، ولا نعثر على اسم عالم من السّريان أو اليونان القدماء ممن ألّف في نحو لغته أو في المنطق ولو على سبيل الإشارة إلى محلّ الأخذ". (57).

ولم يكتفِ الحاج صالح بهذا بل توسّع في المناقشة متناولاً أدنى شبهة يمكن أن تُوهم القارئ بفكرة المقاربة بين الأصول النحوية العربية والأصول الأجنبية اليونانية، ففند المشابهة في تقسيم الكلام إلى ثلاثة أقسام نظراً لاختلاف الغرض وعدم التسليم بالتقسيم الثلاثي عند أرسطو (حتى عند علماءهم) وغيرها من الشبهات. وبعد هذه التفنيدات يقول متعجباً من هؤلاء الذين يدعون الموضوعية والعلمية: "والغريب أنّ هؤلاء وهم علماء محققون يقفون أمام شهادة التاريخ منذهلين فإن وقع أدنى اشتباه رفضوها" (58) وعلى كلّ حال "فالمنطق الأرسطوطاليسي لم يجد مرتعاً مريئاً إلا بعد نشوء النحو واكتماله، أي بعد إغلاق باب الاجتهاد، ولكي نفهم هذه الظاهرة التاريخية يجب أن ننظر إلى أحداث الزمان لا كأحداث متفرقة لا ارتباط بينها كما يفعله بعض المؤرخين، لا على أنه مجموعة متلاحمة الأجزاء شديدة الاتصال، فالتجزئة والتفريق بينها والنظر فيها كلّ على حده يفسد التحليل ويؤدّي إلى مشاكل لا حلّ لها بل إلى ورطة وارتباك" (59) ومن ثمة فالتحو العربي نحو أصل، لا أثر للمنطق الأرسطي ولا للفكر اليوناني في بلورة معانيه وبناء مفاهيمه ومبادئه.

5- خاتمة:

إنّ إسهامات الحاج صالح رحمه الله لم تقتصر على هذا الإحياء ومحاولة إثبات أصالة الفكر اللغوي العربي في كثير من القضايا التي عالجه، إنّما المتبّع لجهوده اللسانية يصادف الكثير من المشاريع التي ترنو إلى الرقي باللغة العربية في وقتنا الحاضر، وذلك من قبيل مشروع الذخيرة اللغوية العربية، وكثير من الآراء الخاصة بتعليم اللغة العربية وسبل الرقي بها. ويمكن تصنيف تجربة الحاج صالح - النظرية الخليلية الحديثة - ضمن القراءة التفاعلية التي تسعى كما يشير إلى ذلك "عبد السلام المسدي" إلى الإفادة من المزاوجة بين التراث اللغوي العربي واللسانيات المعاصرة؛ (فالبحت اللغوي الأصل هو الذي يسعى إلى الإبداع والابتكار وعدم أخذ آراء الآخرين مأخذ القداسة، وعدم تقبّل مناقشتها) ذلك أنّها بحسب الحاج صالح - تقوم بتحديث الفكر اللغوي العربي والنّهوض به إلى واجهة الاهتمامات اللغوية، أمّا من ناحية الاهتمامات اللسانية فإنّها تُغني الفكر اللغوي عامّة من خلال مدّه بروافد عربية، فضلاً عن تعميق فهمنا للسانيات عبر تحليل المسائل اللغوية في التراث اللغوي العربي، كما تؤمّن بعداً تراثياً للسانيات العربية تهتم بقضايا لغتنا العربية وتحلّل مسائلها. وقد استطاع الحاج صالح عن طريق إعادة قراءة التراث أو كما يسمّيها هو "القراءة الجديدة"، أن يوازن بين مفاهيم العلماء العرب القدماء وبين ما نجده اليوم من مفاهيم علمية في العلوم اللسانية الحديثة، وفي المنطق العلمي؛ فقد تضمّن تراث علماؤنا القدماء مفاهيم تكوّن في الحقيقة - نظرية دقيقة وهذه المفاهيم جديدة بأن يكشف عنها وعن حقيقتها.

الهوامش:

- (1)- إضافة إلى هذه المناهج، يمكن الإشارة إلى الاتجاه التوليقي؛ الذي يقوم على خصائص نحو اللغات التوليفية، ويمثّل هذا الاتجاه الحديث أحمد الأوراني من خلال النظرية النسبية. للاطلاع على المزيد ينظر: محمّد الأوراني: نظرية اللسانيات النسبية- دواعي النشأة - منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية ناشرون، بيروت، لبنان، ط1: 2010.
- (2)- ولد الدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" - رحمه الله - بمدينة وهران سنة 1927م، درس في مصر وفي بوردو وباريس. تحصّل على التّبريز من باريس ودكتوراه دولة في اللسانيات من جامعة باريس - السوربون - كان أستاذاً بجامعة الرباط

- سنة 1961 إلى سنة 1962 م وبجامعة الجزائر بعد ذلك، وصار مديرا لمعهد اللسانيات بالجزائر، ثم مديرا لمركز البحوث العلمية لترقية اللغة العربية وعينه الرئيس "عبد العزيز بوتفليقة" رئيسا للمجمع الجزائري للغة العربية سنة 2000م وهو عضو في المجمع الآتية: دمشق، بغداد عمان والقاهرة. أشرف على مشروع الذخيرة العربية الدولي، له مؤلفات متعددة في علوم اللسان واللسانيات العربية. توفي رحمه الله يوم 05/03/2017. ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر الجزائر، 2007، الغلاف.
- (3) - حسن خميس سعيد الملخ: نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ط1 2000، ص:242.
- (4) - حسن خميس سعيد الملخ، المصدر نفسه، ص:247.
- (5) - د. الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، ط2012، ج1، ص:20.
- (6) - د. عبد الرحمن الحاج صالح: منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، ط 2012، ص:8-9.
- (7) - عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ضمن كتاب: تقدّم اللسانيات في الأقطار العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 1991. ص:367.
- (8) - المصدر نفسه، ص:387-388.
- (9) - صالح بلعيد، مقاربات منهجية، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2011 م، ص 14-207.
- (10) - ينظر، د. محمد صاري: المفاهيم الأساسية للنظرية الحديثة، مجلة كلية اللغة العربية وأدابها، جامعة عنابة، ع:8، 2010 ص:9.
- (11) - عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ضمن كتاب: تقدّم اللسانيات في الأقطار العربية، ص:367.
- (12) - ينظر: د. خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، دار القصب للنشر، الجزائر، ط2000، ص:135.
- (13) - عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص:22-23.
- (14) - وقد عبّر عن ذلك في مقدّمة أطروحته في الدكتوراه التي ناقشها بجامعة السوربون سنة 1797 م، حيث يقول في: "L'étude que nous présentons ici a précisément pour objet d'apporter une modeste contribution au travail d'interprétation et d'éclaircissement que cette recherche linguistique aurait dû susciter depuis longtemps au même titre que la linguistique indienne ou la grammaire de Port Royal". Abderrahmane Hadj Salah, linguistique arabe et linguistique générale: essai de méthodologie et d'épistémologie du à l'Ilm al-àArabiyya, -thèse de doctorat, université Paris 4, Volume 1, 1979, P3.
- (15) - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج:1، ص:168-169.
- (16) - ينظر: المصدر نفسه، ص:169.
- (17) - المصدر نفسه، ص:169.
- (18) - عبد الرحمن الحاج صالح: النظرية الخليلية الحديثة- مفاهيمها الأساسية- كراسات مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، العدد4، 2007، ص:10-11.
- (19) - د. شفيقة العلوي: العامل بين النظرية الخليلية الحديثة والربط العاملي لنعوم تشومسكي، حوليات التراث، جامعة مستغانم العدد السابع، 2007، ص:7.
- (20) - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية: ج1، ص:263.
- (21) - ينظر، المصدر نفسه، ص:103.
- (22) - ينظر، المصدر نفسه، ص:104.
- (23) - المتأخرون هم من جاؤوا بعد القرن الخامس الهجري، غير أنّ الحاج صالح استثنى بعض المبدعين من أمثال: الرضي الاسترابادي.

- (24) - عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 2، دار موفم للنشر، ط: 2012، ص: 53.
- (25) - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية: ج: 1، ص: 11.
- (26) - د. الشريف بوشحدان، الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح وجهوده في ترقية استعمال اللغة العربية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، بسكرة، العدد 7، 2010، ص: 3.
- (27) - الأستاذ: الزايدى بودرامة: *النظرية الخليلية الحديثة، أسسها وحدودها المائتة*، جامعة محمد لىن دباغين، سطيف 2، نقلا من الموقع الإلكتروني: <https://boudramazaidi.blogspot.com/2015/>.
- (28) - عبد الرحمن الحاج صالح: مستقبل البحوث العلمية في اللغة العربية وضرورة استثمار التراث الخليلى، بحث ألقى في ندوة نظمها المعهد العالي للحضارة الإسلامية بوهران، سنة 1989، ضمن كتاب: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 2، ص: 45.
- (29) - ينظر، د/ عبد الرحمن الحاج صالح: الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية، اتحاد الجامعات العربية، ندوة تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية، المصدر نفسه، ص: 20.
- (30) - عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، ص: 208.
- (31) - المقصود بالجانب التأملى، هو الذي يمت بصله إلى الفلسفة والمنطق اليوناني، والتقسيم والتصنيف الأرسطى الذي اهتم به النحاة المتأخرون.
- (32) - أكثر المصطلحات اللغوية، كما يقول الدكتور الحاج صالح، لم يتغير لفظها عند المتأخرين، إنما الذي تغير هو محتواها، ومن ذلك مثلا: "لفظة"، "كلمة"، "حرف"، "القياس"، "المبنى"، "المبنى عليه"، "باب"، "حد"، "مثال"، "بناء" و"وصل" "إدراج"، "أصل" "فرع"... انظر د/ عبد الرحمن الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، مجلة اللسانيات، العدد 1 ص: 27.
- (33) - عبد الرحمن الحاج صالح: مستقبل البحوث العلمية في اللغة العربية وضرورة استثمار التراث الخليلى، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الأصالة والبحوث اللغوية الحديثة. عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 2، ص: 44.
- (34) - الحاج صالح، تكنولوجيا اللغة والتراث اللغوي الأصيل، محاضرة أُلقيت في 1984 في قاعة المؤتمرات لمجمع اللغة العربية الأردني، ونشرت في الموسم الثقافي الثاني لهذا المجمع، ضمن كتاب: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، ص 280-281.
- (35) - يرى الحاج صالح أن التقليد "هو اتباع الإنسان لغيره فيما يقول أو يفعل معتقدا الأحقية فيه من غير نظر وتأمل في الدليل... أو بعبارة أخرى هو اتخاذ أقوال الغير كحقائق لا تقبل الجدل وعدم الإتيان بأي ابتكار"، ينظر: الحاج صالح، المصدر نفسه ص: 11.
- (36) - المصدر نفسه، ص: 282.
- (37) - المصدر نفسه، ص: 283.
- (38) - المصدر نفسه، ص: 289.
- (39) - عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 2، ص: 46.
- (40) - عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات الحالية في العالم العربي، بحث ألقى في ملتقى حول تطور اللسانيات في العالم العربي الذي نظمته اليونيسكو في الرباط، من 1 إلى 11 أفريل، سنة 1987، مجموع ضمن كتاب: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، ص: 217-218.
- (41) - ينظر، الأستاذ: الزايدى بودرامة: *النظرية الخليلية الحديثة*.
- (42) - المصدر نفسه.
- (43) - عبد الرحمن الحاج صالح: المدرسة الخليلية الحديثة ومشاكل معالجة العربية بالحاسوب، بحث ألقى في مؤتمر اللغويات الحاسوبية، بالكويت، 1989، ضمن كتاب: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، ص: 241.

- (44)- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص: 241-242
- (45)- الأستاذ: الزايد بودرامه: *النظرية الخليلية الحديثة*.
- (46)- شغلت هذه القضية الباحثين في أرجاء الوطن العربي، وأفرد لها بعضهم مؤلفات مستقلة، على سبيل المثال: المنطق والنحو الصوري، د. طه عبد الرحمن، والنزعة المنطقية في النحو العربي، د. عبد الفتاح الدجني، وأصالة النحو العربي، د. كريم حسين ناصح الخالدي، ومنطق العرب في علوم اللسان، د. عبد الرحمن الحاج صالح، كما أفرد لهذا الموضوع مقالات خاصة، منها: النحو العربي ومنطق أرسطو، د. عبد الرحمن الحاج صالح، وخواطر حول علاقة النحو العربي ومنطق أرسطو، د. عبد الرحمن الحاج صالح، وخواطر حول علاقة النحو العربي بالمنطق واللغة، د. عبد القادر المهييري، حوليات الجامعة التونسية، العدد العاشر، 1973، ص: 21-36، والنحو العربي ومنطق أرسطو، د. محمد عابد الجابري، وقائع ندوة البحث اللساني والسميائي، كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، الرباط، 1984 م، ص: 235-257 كما شغلت هذه القضية المستشرقين ينظر: جيرار تروبو: نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، مجلة اللغة العربية الأردني العدد الأول، المجلد الأول، 1978 م ص: 125.
- (47)- عبد الرحمن الحاج صالح: النحو العربي ومنطق أرسطو، نشر هذا البحث في مجلة كلية الآداب بجامعة الجزائر، العدد: 19641 مجموع ضمن كتاب: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، ص: 44.
- (48)- المصدر نفسه، ص: 46-47.
- (49)- المصدر نفسه، ص: 47.
- (50)- المصدر نفسه، ص: 49.
- (51)- عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، ص: 46.
- (52)- عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص: 50.
- (53)- المصدر نفسه، ص: 50.
- (54)- المصدر نفسه، ص: 50.
- (55)- الأستاذ: الزايد بودرامه: *النظرية الخليلية الحديثة*، أسسها وحدودها المائزة (مقال من الأنترنت).
- (56)- عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج: 1، ص: 50.
- (57)- المصدر نفسه، ص: 52.
- (58)- المصدر نفسه، ص: 60.
- (59)- المصدر نفسه، ص: 60.

المصادر والمراجع:

- 1- عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر الجزائر، 2007.
- 2- عبد الرحمن الحاج صالح: منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، ط. 2012.
- 3- عبد الرحمن الحاج صالح: النظرية الخيلية الحديثة- مفاهيمها الأساسية- كراسات مركز البحث العلمي والتفني لتطوير اللغة العربية، العدد4، 2007 .
- 5- الشريف بوشحان: منطق اللغة ومنطق العقل، مجلة الموقف، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع482، جوان 2011.
- 6- تمام حسان: الأصول، دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: النحو، فقه اللغة البلاغة، عالم الكتب، أميرة للطباعة القاهرة. 2000 م،
- 7- حسن خميس سعيد الملق: نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ط1 2000 .
- 8- خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، دار القصب للنشر، الجزائر، ط2000، ص.135
- 9- صالح بلعيد، مقاربات منهجية، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2011 م.
- 10- محمد صاري: المفاهيم الأساسية للنظرية الحديثة، مجلة كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، العدد الثامن 2010.
- 11- شفيقة العلوي: العامل بين النظرية الخيلية الحديثة والربط العاملي لنعوم تشومسكي، حوليات التراث، جامعة مستغانم العدد السابع، 2000.
- 12- مجلة الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، بسكرة، العدد7، 2010.
- 13- مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، العدد1، 1964 م.
- 14- مجلة، تقدّم اللسانيات في الأقطار العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 1991..
- 15- محمد الأوراعي: نظرية اللسانيات النسبية- دواعي النشأة - منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية ناشرون، بيروت، لبنان ط1، 2010.